إشكالية التأريخ الكولونيالي على الدراسات المغاربية القديمة ومحاولات التجديد المعاصرة"

The Problematic of colonial history on ancient Maghreb studies and contemporary attempts to renew it.

د. عبد النور العمري

جامعة يحي فارس المدية.lamriabn@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020 /08/10 تاريخ القبول: 2020 /09/23 تاريخ النشر: 2021/01/05

الملخص:

الكتابات الفرنسية الخاصة بتاريخ الجزائر وبلاد المغرب القديم بقت مجالا لألغام وتفاسير مزورة للحقائق والأحداث التاريخية المدروسة، بسبب التوجه الذي أفرزته المفاهيم المتعاقبة لمؤرخين وأثريين فرنسيين في التأثير على تدوين تأريخ الفترات العتيقة من تاريخ بلاد المغرب القديم، والتي عانت من تأويلات هادفة وأحكام مسبقة جاهزة للاستهلاك، والتي أنتجتها تلك الكتابات الأجنبية خصوصا مع فترة التحضير لدخول الجيوش الاستعمارية الفرنسية إلى المنطقة وما تلاها من زمن فيما بعد. فما هي الأهداف العامة والأغراض الخاصة من محاولات تزييف حقائق تاريخية عن بلاد المغرب القديم؟؟ وما هي محاولات الدراسات المحلية المعاصرة لكتابة تاريخ المنطقة المغاربية بموضوعية أو محاولات التجديد عن طريق طرح تفاسير لإشكاليات غامضة في بعض محطات التاريخ المغاربي؟.

كلمات مفتاحية: التأريخ، المدرسة الكولونيالية، تاريخ الجزائر، بلاد المغرب القديم، المؤرخين.

Abstract:

French writings remained on the history of Algeria and the ancient Maghreb A field for some false interpretations of historical facts and events, Because of the directing role played by the successive concepts of French historians and archaeologists in influencing the codification of the history of ancient periods of the Maghreb history, Which suffered a lot from the malicious interpretations and ready-made prejudices produced by those foreign writings, especially in the preparation phase for the entry of the

French colonial powers into the region and the time that followed later. What are the general and private objectives of the attempts to confuse some historical facts about the Maghreb?. And What are the most important contemporary local attempts to write the history of the ancient Maghreb objectively, or to renew the presentation and interpretation of some of the ambiguous problems in some stages of Maghreb history?.

Keywords Writing history, the colonial school, the history of Algeria, the ancient Maghreb, historians.

مقدمة:

عانى تاريخ بلاد المغرب القديم كثيرا من تأويلات وأحكام مسبقة جاهزة وافتراضات ومقاربات أنتجتها الكتابات الأجنبية خصوصا في مرحلة دخول الجيوش الاستعمارية إلى المنطقة. فأصبح تاريخ المغرب القديم تتجاذبه مدارس وتيارات بخلفيات ودوافع مختلفة.[1] طغت عليها الاديولوجية والعنصرية الثقافية واللغوية وحتى السياسية بملامح استعمارية. فتعرض تاريخ وتراث بلاد المغرب إلى تشويه في الكثير من مظاهره الحضارية وادوار الإنسان المغاربي الحضارية فيه، وأيضا محطات ومراحل تاريخية مغاربية شوهت وقزمت. وأصبح من الضروري إعادة صياغة تاريخنا القديم عبر استغلال ما هو متوفر في الساحة من وسائل وإمكانيات مادية وعلمية ومنهجية...

1- **خصوصيات كتابات الفترة الاستعمارية عن تاريخ بلاد المغرب القديم:** نجدها من خلال:

أ- منهج الكتابة هادف ببعض التوجهات المنحازة: فالكثير من المؤلفات التاريخية الفرنسية عن العهود القديمة لبلاد المغرب حملت في ثناياها أفكارا وتوجهات شخصية أو قومية. موجهة وهادفة وخاصة (دراسة العهد الروماني وانحيازهم لتاريخ الاحتلال الروماني)... وهذا أساسا جاء نتيجة للبيئة الاستعمارية التي عاش فيها المؤرخون الفرنسيون الذين تأثروا بها وكتبوا تاريخا للمغرب القديم من الخارج، فعمد بعضهم لتشويه طباع الساكنة الأصلية وخاصة القبائل الجبلية والسهبية والصحراوية، الذين لم يروا فيهم إلا قطاع طرق ولصوص يهاجمون المواقع الرومانية – التي كانت حواجز في طريق تنقلاتهم التقليدية نحو منتجعاتهم ومراعيهم- أو أنهم

جامدون لا يريدون التطور ويرفضون الخضوع لتحضر روما، فالتطور هنا يعني الخضوع، والمقاومة والدفاع يعني الجمود...

لذلك فإن كثير من مؤرخي الفترة الاستعمارية الذين كتبوا تاريخ المغرب القديم لم يستطيعوا التخلص من عقدة تفوق الإنسان الأوربي الفكري والحضاري فكتبوا تاريخهم بدلا من تاريخ المغاربة. وأصبحت اغلب الدراسات التاريخية الفرنسية المتعلقة بتاريخ الجزائر في القديم تعتبر دراسات مغرضة تستهدف تبرير الاحتلال.[2]

ب- بروز افتراضات ونظريات سلبية: سادت الساحة التاريخية مع زيادة المطامح الأوربية للمنطقة المغاربية في القرن العشرين. فرسخوا فكرة دونية السكان الأصليين في كتاباتهم، وقدمت ثوراتهم على أساس عدوانية المغاربي ونزعته الفطرية للعنف، وولعه الشديد للخروج عن القوانين وتعطشه لأعمال السلب والنهب والتخريب. وهذا تأثرا بكتابات مؤرخين قدامى رومان اعتادوا على وصف المقاومة المحلية المعادية للرومان بقطع الطرق أو اضطرابات وحروب وتأثرهم في ذلك راجع إلى توجهاتهم الفكرية والاستعمارية.

ت- تنقيبات أثرية هادفة ومركزة على فترة معينة: الذي عرفته المواقع الأثرية بالجزائر كانت مقصودة ومركزة على المواقع التي أدت دورا في العهد الروماني والبيزنطي.. مع أن عددا كبيرا من هذه المراكز -إن لم تكن كلها- وجدت قبل مجيء الرومان، ومع ذلك لم تتجاوز مستويات التنقيبات والحفريات العهد الروماني، وهذا الاتجاه والتوجيه نجده أكثر وضوحا في طريقة عرض المكتشفات الأثرية في المتاحف التي غلب علي مقتنياتها طابع الفترة الرومانية..

ث- تزييف حقائق حول العبقرية المحلية: فتاريخ المغرب القديم تحول إلى ورشة بحوث استعمارية وتشويه برهنت على تسرع كبير وغاية ظهر عليها عدد من المؤرخين والباحثين الأثريين الفرنسيين بإيديولوجية ثقافية استعمارية في الخطابات والأهداف التدوينية.[3] منهم مثلا إميل فيليكس غوتيه،[4] الذي اعتبر رائد للعنصرية لكثرة ما أشار إليه من أفكار. وهناك كتابات كثيرة لروني باسات René Basset بمؤلفاته الخاصة حول اللغة والديانة البربرية، وجورج ايفير George Yver عن القرون المظلمة للمغرب، إضافة لكتابات ارنست مارسيي Ernest Marcier وبالوت Balout وكامبس فابر Camps (F.)، وغابريال كامبس Camps. G) وحتى ستيفان غزال،[5] Gsell. St في بعض تحليلاته واستنتاجاته رغم التزامه بالبحث الأكاديمي الأثري. ورغم قيمة أعماله إلا أنه اصدر بعض الأحكام المسبقة ومنها رأيه لشخصية الملك ماسينيسا أحيانا بأنه قائد عصابة مغامرات، وأيضا تعرضه لأخلاق ومعتقدات السكان الأصليين ونظم ممالكهم الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية، باعتبار هذه الممالك متناحرة وفوضوية وليست قادرة على تحقيق الوحدة أو التعاون، في حين نجده يمجد الرومان بان حققوا وحدة سياسية وطبيعية.[6]

باستثناء محاولات باحثين حاولوا أن يكونوا موضوعيين لحد معين مثل شارل أندري جوليان Charle A. Julien وكتابه تاريخ بلاد المغرب القديم، وكاركوبينوا Carcopino في كتابه "المغرب العتيق". ومارغريت راشي .Marguerite R في كتابها "روما والبربر" ومارسال بن آبو Marcel Benabou في كتاب "المقاومة الإفريقية"...

ح- أحكام لمقاربات متسرعة وتأويلات مسبقة: هناك أحكام متسرعة وتأويلات جاهزة أنتجتها كتابات فرنسية خلال المرحلة الأولى للاستعمار. فكانت دائما تلك الكتابات تشير وأحيانا تؤكد على ظاهرة الانقسام والصراع الداخلي القبلي (المشاحنات القبلية والجهوية). فبعض المؤرخين الفرنسيين سلطوا أقلامهم على نقاط حساسة من هوية وتراث الأمة المغاربية أثرت تلك الكتابات على البحث التاريخي المغاربي القديم إلى اليوم.

فمثلا "اميل قوتي" و"ستيفان قزال" وغيره اعتبروا أن الإنسان المغاربي انحصرت نظمه السياسية في النوع القبلي وزعامة القبيلة حتى وان ظهرت بعض الممالك في بعض الفترات... أيضا قدموا لنا صورة صراع قائم ودائم بين ساكنة الجبل والسهل وأيضا بين ساكني السهوب والتل أو ساكني السهول والسواحل أي بين البدو الرحل والجبليين أو ساكني السهول والحضر. وان الحضارة وتكوين الدولة وحتى الإمبراطورية لم تكون ولن تكون في بلاد المغرب إلا بالاستعانة بالأجنبي (الوجود الأجنبي الذي يقصدون به فينيقيون، رومان، وندال، بيزنطيون، عرب، عثمانيين، فرنسيون).

ج- الاختلافات في أحداث تاريخ بلاد المغرب القديم أنتجت مواضع حساسة منها:

مقاربات حول أصل السكان (أصول شرقية، أصول غربية، أصول محلية منذ العصور الحجرية..): فالدراسات التي قام بها كل من "ماسكوري" و"روني باسي" و"غابريال كامبس" وآخرون قامت على دراسة أعراق وسلالات وثقافات سكان الجزائر عامة وأحيانا تركيز الدراسة على ساكنة مناطق محددة لإثارة نزعات عرقية. وكانت تهدف هذه الدراسات إلى التعمق في فهم المعاش الجزائري بهدف إدماجها في الكيان الفرنسي.

مقاربات في الأصول اللغوية (نجد فيها تضارب بالآراء والتفاسير الاديولوجية ...).

الاكتشافات الأثرية المبكرة كانت للفرق العسكرية المختصة بالطوبوغرافيا: فاغلب الباحثين المرافقين للوحدات العسكرية يختارون على حسب الاديولوجية العسكرية والسياسية وعلاقته الاستخباراتية آنذاك.

المصادر اغلبها إغريقية ولاتينية منحازة: في حقائق وممجدة لبطولات شخصية أو انجازات عسكرية وعمرانية.

المراجع والمقالات اغلبها من المدرسة الفرنسية مع بحوث قليلة باللغات الألمانية، الانجليزية، الايطالية، والاسبانية.

البحوث والمراجع في الفترة الكولونيالية خدمت مصلحة الوجود العسكري والاستيطاني الفرنسي في الجزائر: لأنها طغت عليها الصبغة السياسية والحزبية والتوجهات الاديولوجية لأصحابها من كتاب ومؤرخين وانثربولوجيين ودينيين ..والتزامهم بإثبات وجودهم واستعلاء أمتهم وخدمة قضايا شعوبهم والتركيز على المصالح القومية لبلادهم.

سيطرة المدرسة الكولونيالية الفرنسية على كل التنقيبات الأثرية والحفريات في الجزائر وحتى في المغرب الأقصى وتونس وإبعاد كل المدارس العالمية الكبرى مثل المدرسة الألمانية والمدارس الانجلو سكسونية (البريطانية) و(الأمريكية)..ما أعطي للمدرسة الفرنسية الاستثناء في التنقيب والبحث دون إيجاد مدرسة تنافسها وتتعقب أخطاء باحثيها أو تنتقد نظرياتها وافتراضاتها ومقارباتها التي تحمل أحيانا الشك والعنصرية في الطرح..

2- **منطلقات ودوافع اهتمام الاستعمار بالكتابة التاريخية لتاريخ الجزائر**: برزت من معطيات ودوافع أهمها:

تغلبهم عسكريا على شعب سيطر على تجارة وزعامة المتوسط لسنين طويلة. فالاحتلال جاء بعد صراع شديد بين الجزائر البحرية وبين أوروبا المسيحية دام ثلاثة قرون، ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر أولا لمعرفة أسرار زوال التراث الأوربي القديم بها، وثانيا لتحطيم المعنويات الروحية لأهل بلاد المغرب الكبير عامة.

شعورهم بذاتية الاستعلاء والعنصرية أنهم شعبا متحضرا حكموا شعبا اقل تحضرا وبحاجة لمساعدة من الخارج.

لأنهم مسيحيين كاثوليك بسطو سيطرتهم على امة ارتدت عن المسيحية مع القرن السابع ميلادي- في نظرهم- لذا وجب عليهم استرداد مسيحية الشمال الإفريقي. فانصب اهتمامهم بالدراسات الإسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين الروحيين، لمعرفة نقاط قوة وضعف المسلمين، كما شاركت الكنيسة، بواسطة رجال التبشير ووسائلها المعنوية والمادية في تبني هذا الاتجاه.

رغبتهم في التعرف على شخصية ومقومات امة تحمل ثقافة محلية-شرقية وقعت في ظلال الحضارة الأوروبية والتي ستحمل معها إلى الجزائر كل أدوات تطوير وتحويل الفكر المحلي، منها المطبعة والصحيفة، والمستشرقين الذين اختصوا وأدعو معرفة الإسلام وتاريخه، وبالمترجمين خريجي مدارس اللغات الشرقية الأوروبية أو المستقدمين من بلاد الشام ومصر عقب حملة نابليون.

دافعهم للسيطرة والاحتلال، ولتحقيقه لابد من جمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها. فعرفت الإدارة الاستعمارية ومن ورائها الباحثين والمؤرخين والمستشرقين كيف توظف إشكالات التاريخ المحلي في خدمة المستعمر، وهي مخططات هدفت لإفراغ التاريخ الجزائري حضاريا وتحويله إلى منطقة فراغ.[7]

إذن فالمعطيات العنصرية فرضت في ذهنية الفرنسيين حتمية تاريخية، ودفعتهم للاهتمام بالتاريخ الجزائري وحدد منهجهم من الجزائريين مع الزمن. وربما تلك المعطيات من تحكمت في الكتابات الفرنسية عن الجزائر.

3- التقسيمات الرئيسية للكتابات الكولونيالية الفرنسية عن تاريخ وتراث الجزائر:

اتجه الفرنسيون في البداية رغم حملات الاحتلال العسكري البحث في ثلاثة مجالات وهي:

نشر الآثار القديمة عن الجزائر. وإنشاء اللجان العلمية ومنح الرخص للأفراد للقيام بعلميات البحث والجمع والتعريف بالآثار التاريخية في البلاد. فاللجنة الأفريقية التي زارت الجزائر سنة (1833) بقصد التحقيق في مصير الجزائر، أنهت أعمالها بتقارير ومحاضر غنية عن الجزائر في مختلف المجالات، كالاقتصادية والاجتماعية. وفي سنة (1837) أنشأت وزارة الحربية لجنة اكتشاف الجزائر العلمي. التي نشرت دراسات هامة في أجزاء عن الآثار والعلوم الطبيعية والفنون والتاريخ وعلم السلالات، كما قام العديد بالبحث ونشر أعمالهم في التاريخ المحلي المتنوع (لهجات، نظم، طبائع السكان، الحياة القبلية...).

تكوين الجمعيات المختصة، والصحف والدوريات: التي تحفظ المكتشفات التاريخية وتعتني وتعرف بها. فقد صدرت سنة (1839) جريدة "الأخبار" اهتمت بالأبحاث التاريخية رغم أنها جريدة سياسية إخبارية. كما ظهرت سنة (1847) جريدة "المبشر" بالأخبار المحلية، في العهد الأول من الاحتلال. وفي

سنة (1852) أسست جمعية قسنطينة للآثار ما أدى لظهور دوريات متخصصة في الدراسات التاريخية والأثرية.

كما يمكن تقسيم عهد التأريخ والمؤرخين الفرنسيين بالجزائر إلى عهدين:

أ- عهد المؤرخين العسكريين في الفترة 1830-1880م:[8] فخلال العشر سنوات الأولى لاحتلال الجزائر ظهر كتاب عسكريون فرنسيون أمثال: كاريت، بيليسي هانوتو، ديلامار... شاركوا في اللجنة العلمية التي أنشأتها وزارة الحرب عام 1837، بهدف اكتشاف الجزائر ومعرفة أحوال وأصول وحياة ساكنيها السابقين. ومن المشاريع التنظيمية العلمية التي رافقت البحث التاريخ والأثري في هذه الفترة:

تأسيس لجنة الاكتشاف العلمي للجزائر (1837-1841م).

مشروع اللوحة: الذي جمع حوله مجموعة باحثين لدراسة وضع المنشآت الفرنسية بالجزائر، فأصبح عملا ضخما ما بين سنوات 1843- 1964 في 17 مجلدا، ضم دراسات إحصائية هامة عن حياة الأهالي.[9]

إنشاء مكتبة متاحف الجزائر سنة 1835. (Le Musées bibliothèque d'Alger)، كمكتبة الجزائر، ولكن بدأت العمل بصفة فعلية سنة 1838. ثم أضيفت لها متحف أثري . وأصبحت المكتبة والمتحف منطلقا للباحثين والمؤرخين في تاريخ الجزائر حيث وفرت لهم الكثير من المخطوطات العربية والمطبوعات والآثار، كما توسعت آنذاك المكتبات العسكرية التي كانت تتبع المراكز الأمنية في المدن التي وقع احتلالها.

إنشاء متحف شرشال في الشهور الأولى للاحتلال، والذي خصص لحفظ الآثار الرومانية والتراث اللاتيني.

إنشاء الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة (منشوراتها حوليات) سنة 1852.

إنشاء المتحف الأثري بقسنطينة سنة 1853.(Le Musées d'archéologie à Constantin)

إنشاء المفتشية العامة للمعالم التاريخية والمتحف الأثري بالجزائر سنة (1854). (L'inspection générale des monuments historiques et le musée archéologique de L'Algérie).

تأسيس الجمعية التاريخية لمدينة الجزائر سنة 1856. (أصدرت المجلة الإفريقية).

تأسيس جمعية البحوث تغير اسمها إلى أكاديمية هيبون سنة 1863.

إنشاء الجمعية الأثرية والجغرافية لمدينة وهران سنة 1878.

إنشاء متحف زبانة بوهران سنة 1879.(Le musée de Zabana)

ب- عهد المؤرخين الاختصاصين (1880-1954م):[10]

خلاله أنشئت عدة مصالح ومدارس ساعدت هؤلاء المؤرخين الاختصاصيين، على أداء مهنهم ففي:

إنشاء المدرسة العليا للآداب بالجزائر. (L'École supérieure des lettres d'Alger) سنة (1880/1879) ثم حولت لكلية الآداب والتدريس والبحث في تاريخ بلاد المغرب وإفريقيا خدمة للإدارة الاستعمارية في الجزائر أو خارجها، قدمت تسهيلات وتشجعيات مادية ومعنوية للأساتذة خلال تدريسهم أو أبحاثهم وتنقلاتهم.

تأسست سنة 1880 مصلحة الآثار التاريخية بالجزائر: قامت ببعث مدينتي جميلة وتيمقاد الرومانتين.

إنشاء مدرسة الفنون الجميلة سنة 1881 .(L'École des beaux-arts)

تأسيس سنة 1883 لجنة أفريقيا الشمالية في باريس: من مهامها بعث الوثائق والخطوط والنقوش الأثرية.

إنشاء سنة 1896 الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر وشمال إفريقيا.

تأسيس جامعة الجزائر سنة 1909: لجعلها أداة طيعة في يد الإدارة الفرنسية لتطبيق سياستها الاستعمارية في نمذجة البنى الفكرية للناشئة و ترويض العقول لتسهيل الإدماج.

إنشاء سنة 1910 لجنة شارل جونار لنشر الوثائق التاريخية بالجزائر: عهد إليها نشر مراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسي في الجزائر وعلاقات الأهالي معهم.

إنشاء لجنة التحضير للاحتفال المئوية بالاحتلال سنة 1925 (نشرت أعمال المجموعة المئوية).

أقيمت سنة 1930 اللجنة المئوية[11] المخلدة للاحتلال.

وفي نفس السنة 1930 انشأ متحف الفنون الجميلة بالجزائر. (Le musée des beaux-arts d'Alger)

أنشأ معهد الدراسات الشرقية بالجزائر سنة 1933، وانصب اهتمامه على الحياة العربية الإسلامية الماضية للجزائر، ترأسه جورج مارسي ثم هنري بيريس المعروفين بالتعصب والعنصرية ضد الجزائريين والمسلمين.

تكوين اتحادية الجمعيات العلمية لشمال إفريقيا سنة 1935، كان من أهم أعمالها الاجتماع كل سنة في إحدى مدن المغرب العربي لتنسيق جهودها وتتبادل الخبرات والمعلومات، وعرض مختلف الأبحاث والدراسات.

إنشاء معهد الأبحاث الصحراوية سنة 1940.

انشأ مختبر الانثربولوجيا وعلم آثار ما قبل التاريخ سنة 1949. (Le Laboratoire d'Anthropologie et d'Archéologie Préhistoriques).

انشأ مركز البحوث الانثروبولوجية، عصور ما قبل التاريخ، والاثنوغرافية سنة 1956. (Le Centre de Recherches Anthropologiques, Préhistoriques et Ethnographiques)

احتفال الجمعية التاريخية الجزائرية سنة 1956 بمؤلفها الرائد آنذاك " المجلة الإفريقية " بمرور مائة سنة على ميلادها، خلاله قدم خلاصة دراسات المجلة والتثنية علي تقدمها في الكتابة التاريخية الفرنسية عن الجزائر.

ومن أشهر الأساتذة الجامعيين الذين برزوا خلال هذا العهد من التدوين والتأليف التاريخي والأثري:

الباحث	اختصاصات كتاباته التاريخية
– ريني باسي	(اختص بالدراسات اللغوية واللهجات المحلية).
– جورج إيفير	(اختص بتاريخ الاحتلال).
– ستيفان غزال	(اختص في تاريخ شمال إفريقيا القديم).
– مارسيل إيمريت	(اختص بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية للأهالي).
– شارل أندري جوليان	(اختص بتاريخ شمال أفريقيا عبر العصور).
– بول مانصو	(اختص بالتاريخ الأدبي لأفريقيا المسيحية).
– روني كانيا	(اختص بالجيش الروماني والحياة العسكرية بإفريقيا).
– شارل ديل	(اختص بتاريخ إفريقيا البيزنطية)...

غير أننا نعترف أن هذه الفترة الثانية الخاصة بالباحثين المتخصصين قد قدمت الكثير للتاريخ المحلي وبالأخص في اختصاصات صعبة مثل علم المسكوكات والفسيفساء ودراسة النقوش الليبية والبونية واللاتينية، ودراسة المستحثات الحجرية والنباتية والحيوانية وعظام الإنسان البدائي والتي ظهر فيها علماء تقنيين وأصبحوا روادا وأعمالهم كمصادر لا يمكن الاستغناء عنها....

وأبدا لا يجب أن ننظر إلى كثير من أعمال المؤرخين الفرنسيين المختصين مهما كانت بأنها كتابات يجب استبعادها لان هناك العديد من المؤلفات والمقالات وأرشفة علمية دقيقة لمستحثات ما قبل التاريخ وقطع الآثار والمنحوتات وغيرها حتى ولو خدمت الاستعمار وأهدافه بضرب روح النضال الطويل والثورات... لأنها حققت الكثير ولولاهم لبقيت كثير ن الحقائق طي النسيان. كما أن ليس كل المؤلفين الفرنسيين معادين للجائر وثوراتها أو ثقافتها وأصولها.. ويجب التخلص من فكرة التعميم في كل شيء.[12]

4- **محاولات التجديد وعصرنة المناهج التاريخية والأثرية المغاربية القديمة:** إن معظم ما كتب عن تاريخ بلاد المغرب القديم عامة باللغة العربية في فترة السبعينات والثمانينات ليس إلا شذرات سرعان ما تنسى لأن معظمها لم ينشر في المجلات العلمية المعتادة ومعظم هذه الكتابات لا يسهل الحصول عليها لأنها منشورة في كتب محررة تضم مجموعات من المقالات أو في أعداد خاصة من المجلات، عدا ذلك، كانت تصدر هذه المواد في شكل تقارير غير منشورة، أو رسائل علمية غير مكتملة، أو ككتابات لا يتم تداولها عن طريق منابر النشر والتوزيع المعتادة. كما أن أسلوب إنتاج المعرفة نفسه كان ولا يزال جزء من مشكلة هيكلية أدت إلى بعد تاريخ المنطقة الحقيقي عبر دراسته بمناهج تحليلية ونقدية ..

وقد حدثت بعض التغيرات المتواضعة في التسعينات، مما أظهر مجال دراسات مختصة في تاريخ الجزائر القديم بقدر أكبر مما كان عليه الحال في ثمانينات القرن العشرين.

كما تعد الثورة الحقيقية في مجال تجديد كتابة التاريخ القديم للجزائر وبلاد المغرب وفق المناهج العلمية والحيادية والموضوعية في الطرح وإعطاء قدر واحترام للشعوب المغاربية عبر تاريخها العريق كل هذا عبر خطوات شجاعة ومنها:

الجهود الحثيثة للدولة الجزائرية التي فتحت الجامعات والمعاهد ومخابر البحوث لتكوين الكثير من أصحاب الدراسات العليا وما بعد التدرج في المجالات التاريخية والأثرية والانثربولوجية والاجتماعية والثقافية.. إدراكا منها لأهمية إعادة كتابة موروثها الثقافي القديم الذي شوهته المدرسة الكولونيالية وصبغته بتاريخ العنصرية والدونية لمجتمعنا.

البعثات العلمية للنخب الجزائرية للتواصل مع جامعات ومعاهد العالم المختلفة لاحتكاك اكبر ومقارنة المدارس العالمية المختلفة في توجهاتها المعاصرة لدراسة الإنسانيات والعلوم الاجتماعية.

بروز مراكز بحثية وطنية كقاعدة قوية للبحوث الأثرية والتاريخية والانثربولوجية ... ومن أشهرها:

المركز الوطني للبحث في علم الآثار.

Le Centre National de Recherche en Archéologie (CNRA)

المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ ،علم الإنسان والتاريخ.

Le Centre National de Recherches Préhistorique, Anthropologique et Historique (CNRPAH).

المركز الوطني للبحث في الانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهران.

Le centre national de recherche en anthropologie sociale et culturelle (CRASC).

5- أهم الأسس العلمية والمنهجية لتجديد وعصرنة الكتابات التاريخية القديمة:

إعادة صياغة تاريخ المغرب القديم[13] تفرض على المؤرخين استغلال كل ما هو متوفر من وسائل وإمكانيات علمية ومنهجية، عبر قراءة المصادر الكلاسيكية قراءة متأنية نقدية لما جاء فيها من معلومات بالواقع والمنطق، ثم محاولة استنتاج اللحظات التي جاءت فيها هذه المصادر عن الموضوعية، وإبراز المواقف التي كانت فيها غير منحازة، كخلفياتهم العرقية والثقافية والسياق التاريخي للنصوص.

إخضاع المصادر القديمة لغربلة أفكارها وإشاراتها وفقراتها وإخضاعها لدراسات تحليلية نقدية واعية بالموضوعية التاريخية. ووضعها ضمن مقارنات بين اكتشافات وتنقيبات وحفريات أثرية وعلوم مساعدة للتاريخ.

استعمال المناهج التحليلية والنقدية والمقارنة في الحصص الموجهة والمحاضرات في الأقسام الخاصة بالتاريخ وعلم الآثار والثقافة والفنون والانثربولوجيا الدينية والاجتماعية والثقافية...

جعل الكتابات الكولونيالية حافزا لا هدفا للمزيد من التحري والبحث لأنه بغير ذلك لا نقدم شيئا لتاريخنا. إضافة إلى تجديد وتصحيح بحوث وتنقيبات أثرية وإعادة رسم خريطتها[14] الأثرية التي لم تصحح منذ عشرات السنين.

الحاجة لإعادة قراءة تحليلية نقدية وفق منظور وطني (محلي) وإقليمي مغاربي والكف عن اجترار ما كتبه مؤلفوا (المدرسة الاستعمارية) والتوجه إلى المصادر التي استخدمها هؤلاء المؤرخون والباحثون وإعادة الاجتهاد فيها مثلما اجتهدوا فيها هم على حسب بعض الأهواء السياسية والعسكرية والثقافية خدمة للتوجهات الاستعمارية آنذاك.

استخراج ما يخدم هويتنا ويعززها ويخدم المصلحة القومية والوحدة الوطنية.

الاعتماد على علوم مكملة للتاريخ المحلي القديم مثل علم الانثربولوجيا والاثنوغرافيا واللسانيات ....

الاعتماد على تخصصات علمية مساعدة للتاريخ مثل الجغرافيا، علم قياس الصخور وتقنيات تحديد أعمارها ...

زيادة وتنويع الملتقيات والمؤتمرات الوطنية والدولية عبر مداخلات متخصصة.[15] للمقاربات بين نظرة الأكاديميين المختلفة للحوادث التاريخية كما كانت وليس كما أريد لها أن تكون.

حث الطلبة والباحثين وبالأخص طلبة الدراسات العليا لما بعد التدرج بأولوية تسليط جهود الكتابات التاريخية لإيجاد بديل عن الأسر الأكاديمي لأعمال المدرسة الكولونيالية باستعمال مقارنات ومقاربات وعلوم أخرى مساعدة. فالبحث الأثري والعلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ تبقى لها مكانة في دعم أو تفنيد آراء الباحثين الفرنسيين.

زيادة الكتابات المنهجية التي تعطي حلولا منهجية لدراسة التاريخ المغاربي القديم بموضوعية وطنية.[16]

ضرورية مواصلة التنقيبات الأثرية وهو ما دأبت عليه المدارس الوطنية في العشرية الأخيرة ومن سواعد وطنية كحفرية مرسى الدجاج ببومرداس وحفرية بوشريط بسطيف الخاصة بما قبل التاريخ لأقدم تواجد بشري بشمال إفريقيا (2.4 مليون سنة) والتي نشرت أبحاثها في مجلة العلوم الأمريكية، وحفريات ساحة الشهداء بالعاصمة

الجزائر الذي يجسد أحقابا تاريخية مختلفة لمدينة الجزائر على مساحة 3500متر وبعمق 07 امتار وهو مشروع تنموي مستدام كمتحف تحت الأرض بجانب محطة الميترو، والبحث الأثري المغمور بميناء الحمدانية ب"شرشال"..

خاتمة: كثير من المؤرخين الفرنسيين عرضوا أفكارا ومفاهيم عبرت عن وجهتهم لا نسلم بصحتها ولا نقر باستنتاجاتها لأنها صادرة عن خلفية حضارية مختلفة ومعبرة عن وجهة نظر خارجية لا تخضع لاعتبارات موضوعية وانحازت لظروف استعمارية معادية.

مصادر البحث المكتوبة في التاريخ القديم والمغاربي أجنبية متحيزة في الغالب، شكلت سندا للإنتاج الاستعماري التوثيقي ودعما لبعض التوجهات العنصرية.

كما ظلت الكتابات الأجنبية (الفرنسية) عن الجزائر وبلاد المغرب القديم مجالا للنظريات والمقاربات والافتراضات التي تكون غالبا واهية بسبب الدور المميز الذي لعبته المفاهيم المتعاقبة لباحثين ومؤرخين في التأثير على التفسير الموضوعي للأحداث والوقائع، رغم تعديل كثيرين من المؤرخين والأثريين المختصين بالمنطقة بعض وجهات نظرهم بعيدا عن مواقف متطرفة لزملاء لهم.

مع الزمن الطويل نسبيا للوجود الاستعماري للجزائر أنتجت المدرسة التاريخية الفرنسية نظريات وأفكار وأحكام تم تداولها خلال فترة الاحتلال على أنها مسلمات تاريخية.

بسبب إجحاف المدرسة الاستعمارية في حق المجتمع المغاربي وتاريخه، دفع الباحثين الوطنيين إلى تحرير التاريخ المغاربي "المحلي" من شوائب الإرث الاستعماري المزيفة والعنصرية رغم صعوبات النجاح الكبيرة بسبب الأرشيف والمخلفات الأثرية التي أخذها المستعمر إلى مخابره ومتاحفه وجامعاته.

- الهوامش:

1- أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، عدد 15/14، 1973، ص 08 وما بعدها.

2- عبد القادر صحراوي، تاريخ الجزائر القديم من خلال كتاب ستيفان غزال، مجلة الحوار المتوسطي، عدد 02، مارس 2010، ص 123.

3- لم يترك الفرنسيون خلال الاحتلال شأنا من شؤون تاريخ الجزائر إلا واهتموا به وكتبوا فيه، وعن العادات والتقاليد، واللهجات، والأدب الشعبي..، وهذه الكتابات ما تزال إلى حد الآن تثير الاهتمام ومحل إقبال الدارسين والمهتمين بتاريخ الجزائر وقضاياها وثقافتها، غير أن الجانب السلبي في هذه الكتابات هو ارتباطها بالسياسة الاستعمارية الفرنسية ومخططاتها الرامية إلى تفتيت

مكونات الشعب الجزائري، وتفكيكه، وتقسيمه وبالتالي إضعاف مقاومته للمستعمر. عبد السلام همال، الأسطورة القبائلية البربرية في كتابات المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962)، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 05، ديسمبر 2017، ص 09.

4- Gautier (E), le passé de l'Afrique du Nord, les Siècles obscurs, paris, 1942, pp 05- 30.

5- رغم بعض السقطات المنحازة لستيفان قزال، إلا أن أبحاثة الكثيرة والكبيرة شفعت له أن يحض برائد الدراسات التاريخية والأثرية في الجزائر بدون منازع، واكبر أعماله تاريخيا مؤلف موسوعي تاريخي (التاريخ القديم لشمال إفريقيا) في ثماني أجزاء:

GSELL (St.), Histoire ancienne de l'Afrique du nord, Tomes : 1, 2, 3, 4, 5, 6, 7, 8, éd. Librairie Hachette, paris, 1913-1928.

أما أعماله الأثرية العظيمة فهي: الأطلس الأثري للجزائر الذي هو خريطة أثرية تفصيلية للمواقع وبالأخص الفترة الرومانية مازالت قيمته العلمية لحد الساعة، أيضا مؤلف النقوش اللاتينية للجزائر والذي يعتبر عملا أكاديميا دقيقا لا يستهان به:

- Gsell (St.), Atlas Archéologique de l'Algérie, éd, Adolf Jourdan, Alger, 1911.
- Gsell (St.), Inscriptions Latines de l'Algérie, éd, librairie Honoré Champion, paris, 1922.

6- عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 121. وهناك أيضا أراء كثيرة لمحمد الشريف ساحلي على ستيفان قزال في مؤلفه تخليص التاريخ من الاستعمار، ترجمة محمد هناد محمد الشريف، منشورات الذكرى الأربعين لاستقلال الجزائر، 2002، ص 10.. وما بعدها.

7- حنيفي هلايلي، المستشرقون الفرنسيون في خدمة الإدارة الفرنسية بالجزائر، 1830-1962، ، مجلة الآداب واللغات، العدد السابع، جوان 2005، جامعة تلمسان، ص 152.

8- الذين تولوا كتابة تاريخ الجزائر، الاقتصادي والسياسي والإداري خلال هذا العهد، هم كتاب عسكريون بالمهنة أو تراجمة عسكريون. وقد ظلت الإدارة الفرنسية في الجزائر عسكرية من 1830 إلى 1871 باستثناء سنتي 1860/1858م وان هناك مناطق من الجزائر ظلت عسكرية إلى قيام الثورة التحريرية .وفي هذه الفترة كتب على سبيل المثال لا الحصر: كاريت (عن القبائل الجزائرية واقتصادياتها). وكتب بيليسي دي رينو كتابه خلال 18 سنة الأولى للاحتلال (أخبار الجزائر). وهانوتو كتب عن (لهجات ونظم الجزائريين). ودي سلان (ترجم تاريخ ابن خلدون وجغرافية البكري وغيرهما). والضابط بروسلار (اختص بالخط العربي). وفورنيل اختص ب(كتابة تاريخ شمال إفريقيا في العصور الوسطى). ولاكروا (نشر دراسات عن الاستعمار والإدارة الرومانية في إفريقيا). وبيربوجر تليفه (مقالات كثيرة في المجلة الأفريقية).

9- عهد جديد في كتابة تاريخ الجزائر عند الفرنسيين، بصدور قانون إنشاء المدارس العليا في الجزائر سنة (1880)، كجامعة الجزائر سنة (1909)، ضمت المدارس العليا، مدرسة الآداب، ومدرسة الطب، ومدرسة الحقوق، ومدرسة العلوم..كما صادف ميلاد هاته المدارس العليا مناسبة الاحتفال بمئوية الاحتلال، مما جعل كتابات مؤرخي هذه الفترة، تعمل على تبرير الاستعمار ، وإنجاحه واستمراره . أيضا صادف ميلاد جامعة الجزائر احتلال فرنسا لتونس، فاتسع البحث التاريخي، بشمال أفريقيا .

10- عهد جديد في كتابة تاريخ الجزائر عند الفرنسيين، بصدور قانون إنشاء المدارس العليا في الجزائر سنة (1880)، كجامعة الجزائر سنة (1909)، ضمت المدارس العليا، مدرسة الآداب، ومدرسة الطب، ومدرسة الحقوق، ومدرسة العلوم..كما صادف ميلاد هاته المدارس العليا مناسبة الاحتفال بمئوية الاحتلال، مما جعل كتابات مؤرخي هذه الفترة، تعمل على تبرير الاستعمار ، وإنجاحه واستمراره . أيضا صادف ميلاد جامعة الجزائر احتلال فرنسا لتونس، فاتسع البحث التاريخي، بشمال أفريقيا .

11- تجند هؤلاء المؤرخون في لجان الحكومة العامة للاحتفال بمرور مائة سنة على احتلال الجزائر ، ووضع دراسات تركيبية عن تاريخ الاستعمار بالجزائر وعن جهود فرنسا الحضارية فيها. فخرجت أبحاث (مجموعة المائة سنة) في التاريخ، والآثار والجغرافية، والفنون...، وهذا اللقاء بين المؤرخين الفرنسيين والحكومة العامة برهن تواطؤ المؤرخين مع الإدارة الاستعمارية وخدمتهم لأغراضها .

12- رابح لونيسي، أستاذ بجامعة وهران، علينا تحرير تاريخنا من تزييف التاريخ الرسمي، مقال في جريدة الخبر الجزائرية، 04-07-2013.

13- هذا الموضوع طرحه عبد الله العروي في مقدمة كتابه مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1994.

14- كبادرة لذلك أقيم الملتقى الوطني الأول، آليات تحديث الخريطة الأثرية بالجزائر، 01-02 ديسمبر 2015، المنعقد بقسم العلوم الإنسانية، شعبة الآثار، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف. بمجموعة مداخلات قيمة. إضافة لظهور فرق بحث مخبريه شرعت في إعادة رسم الخريطة الأثرية للجزائر وتجديدها ومن ذلك الأطلس الأثري الجزائري لستيفان قزال.

15- من أمثلة ذلك تنظيم الملتقى الوطني الأول، الأبحاث التاريخية في الجزائر بعد خمسين سنة من الاستقلال، محطة للاعتبار والتقييم، يومي 06-07 ماي 2013، المنظم بقسم العلوم الإنسانية شعبة التاريخ، جامعة باتنة. 34 مداخلة أكاديمية لمختلف الكتابات التاريخية للجزائر عبر مختلف العصور.

16- مسعود شباحي، البحث التاريخي في بلاد المغرب القديم (مشاكله والحلول المقترحة)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، المجلد الثالث، العدد الخامس، ص ص 191-206.

ببليوغرافيا:

المراجع:

- عبد الله العروي في مقدمة كتابه مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1994.
- محمد الشريف ساحلي، تخليص التاريخ من الاستعمار، تر: محمد هناد محمد الشريف، منشورات الذكرى الأربعين لاستقلال الجزائر، 2002.

- Gautier (E), le passé de l'Afrique du Nord, les Siècles obscurs, paris, 1942.

- Gsell (St.), Histoire ancienne de l'Afrique du nord, Tomes : 1, 2, 3, 4, 5, 6, 7, 8, éd. Librairie Hachette, paris, 1913-1928.
- Gsell (St.), Atlas Archéologique de l'Algérie, éd, Adolf Jourdan, Alger, 1911.
- Gsell (St.), Inscriptions Latines de l'Algérie, éd, librairie Honoré Champion, paris, 1922.

المقالات:

- أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، عدد 15/14، 1973.
- حنيفي هلايلي، المستشرقون الفرنسيون في خدمة الإدارة الفرنسية بالجزائر، 1830-1962، ، مجلة الآداب واللغات، العدد السابع، جوان 2005، جامعة تلمسان.
- رابح لونيسي، أستاذ بجامعة وهران، علينا تحرير تاريخنا من تزييف التاريخ الرسمي، مقال في جريدة الخبر الجزائرية، 04-07-2013.
- عبد السلام همال، الأسطورة القبائلية البربرية في كتابات المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962)، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 05، ديسمبر 2017.
- عبد القادر صحراوي، تاريخ الجزائر القديم من خلال كتاب ستيفان غزال، مجلة الحوار المتوسطي، عدد 02، مارس 2010.
- مسعود شباحي، البحث التاريخي في بلاد المغرب القديم (مشاكله والحلول المقترحة)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، المجلد الثالث، العدد الخامس.